«ابن الرّومى» بَين يَدى
الأستاذ الدكتور شوقى ضيف

أحمد محمد عبيدان

حين ينظر الناظر إلى أعمال الدكتور شوقى ضيف الكثيرة المتنوعة، لا يملك إلا أن يجد للرجل أكثر من وجه، فهو أولاً مؤرخ للأدب، وهو ثانيًا ناقد متمكن من أبرز ناقديه، وهو ثالثا مفكر من مفكرى التراث وخبير من خبرائه، وهذا التعدد فى شخصية الرجل العلمية، يصيب بالحيرة كل من أراد أن يكتب عن هذه الشخصية العلمية الموسوعية الخصبة، فأى الجوانب يترك وأيها يختار؟.

وحين عنّ لى، أن أشارك فى الكتابة عن هذه الشخصية العلمية والأدبية البعيدة الغور المتعددة الجوانب، أشفقت على نفسى ألا يكون ماأكتبه فى مستوى عمق الرجل وشمولية أعماله، وهو بالقطع لن يكون كذلك مهما حاولت، وقصارى ما يمكن أن يفعله مثلى، هو أن يحسن اختيار الجانب الذى ينبغى أن يتناوله فى أعمال علم فذ فى حجم الدكتور شوقى ضيف، وقد هدانى عقلى بعد طول تفكير، إلى أن أجعل من اهتمامى بشاعر عربى كبير - هو ابن الرومى - مدارًا للحديث، وشجعنى على ذلك ما وجدته فى أعمال أستاذنا الدكتور شوقى ضيف، من اهتمام كبير وحفاوة بالغة بذلك الشاعر المغبون، فحديثى إذن سيكون عن «ابن الرومى» كما رآه الدكتور شوقى ضيف.

حفاوة بالتراث..

فى البداية، أحب أن أشير إلى أن اهتمام الدكتور شوقى ضيف بشاعرية «ابن الرومى» «لم يأت من فراغ أو بالأحرى لم يكن وليد الصدفة، بل قد كان نتاجًا مباشرًا لعمل شاق ودقيق، فى مسح وغربة التراث عامة، والتراث الشعرى خاصة من «امرىء القيس» حتى «أحمد شوقى»، مما أتاح للدكتور شوقى ضيف بعد هذا العمل الشاق الدقيق، أن يرى أن «تراثنا الشعرى بدعًا من تراث الأمم الشعرى، فهو يحمل لنا حياة أسلافنا على اختلاف صورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويمل لنا أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم، ودقائق حكمتهم

وخبراتهم وكل ما عاشوه من خير وشر وعدل وظلم ويقين وشك ونعيم وشقاء، غير أن كثرة هذا التراث لا تزال بعيدة عن أيدى القراء وأعينهم، إذ لا تزال مخطوطة، وبالتالى لا تزال محجوبة عنهم فى الخزائن العامة والخاصة، ونفس ما نشر ينقص أكثره العناية والتحقيق، مما يفسره ويفسد متعة قلوبنا وعقولنا به، كما يفسد أحكامنا عليه وتقويمنا له تقحيماً صحيحًا مضبوطًا»[١].

ولعل هذه المعرفة الشمولية العميقة بدقائق التراث الشعرى العربى على طول تاريخه، هى التى جعلت أستاذنا يقف على أرض راسخة، حين يدافع عن ذلك التراث ضد النظرات السطحية، والأحكام السريعة الجائرة – وما أكثرها – فيقول وهو على حق: «وليس من شك فى أن أكثر الأحكام فسادًا وضلالاً على هذا التراث، ما يقال من أنه ليس إلا مدحًا وهجاءً ورثاءً، وأن المديح يشغل الحيز الأكبر منه، وهو ليس إلا ملقًا واستجداء ولغوًا وغثاء لا غناء فيه، وهو قول ناشىء عن نقص فى فهم هذا الفن، ونقص آخر فى استقصاء نماذجه ودراستها دراسة متعمقة، إذ لم يكن فن استجداء وملق كما يقال، وكما قد يتبادر لمن يحكمون على الأشياء بظواهر دون بواطنها الحقيقية، وإنما كان فن تمجيد لزعاماتنا وبطولاتنا على مر التاريخ، مما يحيله وثائق تاريخية رائعة لا لسير زعمائنا، وأبطالنا الماضين فحسب، بل أيضا لما تطلب أسلافنا فيهم من خلال إنسانية رفيعة»[٢].

إن الشاعر الأموى لم يكن منافقًا – فى رأى أستاذنا الدكتور شوقى – وهو يناصر الخلفاء الأمويين ويمدحهم، وإلا فإننا نتهم بالنفاق الجماعة الإسلامية التى تعاونت مع أولئك الخلفاء، وهى الكتلة الضخمة من الأمة[٣]، كما أن الشاعر العباسى، كان يعبر عن الجماعة الإسلامية ومثلها الرشيدة، وهو يستضىء بهذه المثل فى مديح الوزراء والولاة والقواد، بل هو يجسدها فيهم جميعًا تجسيدًا قويًا، وكأنه يريد بها أن تصبح قواعد عامة فى الجماعة[٤].

لم يكن ذلك إلا أنموذجا من دفاع أستاذنا المستمر، عن تراثنا الشعرى، أمام المستهينين به، وهو دفاع لا يقوم على مجرد عاطفة خالصة، أو حماسة مشروعة، بل يقوم مع ذلك، وربما قبله، على علم راسخ واستقصاء طويل، وبصيرة نقدية ثاقبة.

---

(١) د. شوقى ضيف، فصول فى الشعر ونقده، دار المعارف ط (٢)، القاهرة ١٩٧٧م، ص١٢.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢ – ١٣.
(٣) المصدر نفسه، ص١٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٥.

مع ابن الرومى:

لابد من أننا سننتظر من رجل فى علم ومنزلة الدكتور شوقى ضيف، حين يعرض لشاعر فى منزلة «ابن الرومى»، أن يجعلنا نقف بدقة على سرار شاعريته، وأن يقودنا بمصباحه النقدى الهادى عبر دهاليز تلك الشاعرية ومنعطفاتها المتشابكة.

وربما كان «عباس محمود العقاد» هو أول من لفت النظر إلى «ابن الرومى» فى كتاب كامل عنه، غير أن كتاب «العقاد» وجه عنايته فى الدرجة الأولى إلى حياة الشاعر من خلال شعره، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب.

أما كتابات شوقى ضيف عن «ابن الرومى»، وهى متوزعة فى ثنايا كتبه، فقد احتفلت أكثر بشعر الشاعر، وركزت اهتمامها على خصائص فنه، وعلى معانيه وأخيلته وأغراضه الشعرية، وسنحاول فى هذه الصفحات، أن نلقى بعض الضوء على شخصية «ابن الرومى» وشاعريته، كما رآها أستاذنا الكبيرَ الدكتور شوقى ضيف.

إنصاف الشاعر:

من الجدير أن نلاحظ منذ البداية، أن الدكتور «شوقى ضيف» لم يتوان عن إنصاف «ابن الرومى» الذى أهمله كثير من النقاد القدماء والمعاصرين، فهو يرد إليه حقه، ويضعه مع الفحول الأفذاذ من شعراء العربية، مثل «أبى تمام» و «المتنبى» و «أبى العلاء»[١]، وهو أيضًا يشير إلى امتياز أفكاره وأخيلته النادرة، ويلفت النظر إلى ما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره، وخاصة الجناس، ويثبي أن له أذنا موسيقية رائعة، وكل ذلك - فى رأيه - حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه، والحق أنه كان شاعرًا بارعًا، بل لا شك - والكلام للدكتور - فى أنه أبرع شعراء العصر، لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة، مما يملأ النفس إعجابًا متصلًا به وبأشعاره[٢].

وحين يجعل أستاذنا من «ابن الرومى» أبرع شعراء عصره، فإنه يكون بذلك قد أنصفه وأنزله المنزلة التى يستحقها فى تاريخ الشعر العربى، وهو لا ينزله تلك المنزلة خبط عشواء، بل يفعل ذلك بعد مقارنات دقيقة أجراها بين شعراء العصر وبين «ابن الرومى».

---

(١) د. شوقى ضيف، فى النقد الأدبى، دار المعارف ط (٥)، القاهرة ١٩٧٧م، ص١٥٦.

(٢) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٣م، ص٣٢٤.

فهو يقارن بين «ابن الرومى» و «البحترى»، فيخلص إلى أن «ابن الرومى» كان يمثل بحق النزعة التجديدية فى العصر، على أن «البحترى» يمثل النزعة التقليدية فيه[1]، وإن كان الشاعران يشتركان فى أنهما ليسا من أصحاب التصنيع، فإذا كان «ابن الرومى» قد اهتم فى صياغته باستخدام لونى الطباق والجناس، فإن «البحترى» كان يصنع الشىء نفسه مع ميل إلى الإكثار من الطباق، وهى أشياء تسقط فى بعض شعرهما وقد لا تسقط،، إذ هى لا تعد بمثابة المذهب عندهما[2]. ويبقى الفرق بينهما ماث﴿ﱠ إ-ء ﷲآ آ «البحترى» يستعير أدوات الطباق والجناس، كان «ابن الرومى» يوسع هذه الاستعارة إلى أدوات من الثقافة والمنطق والتشخيص والتجسيم، ونفس الأدوات التى اتفقا فى استعارتها اختلفا فى استخدامها.. فقد كان «البحترى» يعجب بالطباق أكثر مما يعجب بالجناس، بينما كان «ابن الرومى» يعجب بالجناس أكثر مما يعجب بالطباق»، ونفس الجناس اختلفا فى استخدامه، فبينما كان «البحترى» يستخدم الجناس الكامل، كان «ابن الرومى» يكثر من استخدام جناس الاشتقاق، وليس هذا كل ما بينهما، إذ اختلفا فى صنعة الأسلوب نفسه، إذ كان «البحترى» يعنى بصفاء تعبيره حتى يحدث فيه صناعته الصوتية الخاصة»[3].

وفى خضم هذه الموازنة الفنية الدقيقة بين الشاعرين، لا ينسى أستاذنا أن يرصد العلاقة الشخصية بينهما، التى بدأت فى شكل منافسة امتدت حتى انقسم الأدباء بإزائها قسمين، قسمًا هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين، وهم أنصار «البحترى»، وقسمًا مقابلًا هو أنصار «ابن الرومى» وفى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[4]. وقد أورد الدكتور شيئًا من هجاء «ابن الرومى» لخصمه «البحترى»[5] على أثر هذه المنافسة الحادة، ويبين لنا الدكتور ضيف كيف أن المنافسة لم تزل حادة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء، فتصافيا وتوادا، واعترف كل منهما بفضل صاحبه[6].

(١) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٣١٣.

(٢) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، دار المعارف، ص ٩، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٢١٧.

(٤) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مرجع سابق، ص٣٠٤.

(٥) يقول «ابن الرومى» فى مطلع هذه القصيدة البائية التى قالها فى هجاء «البحترى»:

ما أنس لا أنسى «هندا آخر الحقب   على اختلاف صرف الدهر والعقب

وقد ورد فى ديوانه من هذه القصيدة ستة وثمانون بيتًا، وقد كانت أطول من ذلك فى الأصل كما يشير ناسخ الديوان. انظر: ديوان ابن الرومى، تحقيق د.حسين نصار، جـ(١): ١٦٩/ ١٩٦ وقد أورد الدكتور شوقى ضيف البيتين رقم (٣٧) و (٥٤) من هذه البائية، انظر العصر العباسى الثانى، ص٣٠٥.

(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

بين «ابن الرومى» و «ابن المعتز»:

وحين يعرض أستاذنا للموازنة بين «ابن الرومى» و «ابن المعتز»، نجد أنه يلمس أولًا، أهم الجوانب المشتركة بينهما كما فعل عند الموازنة بين «ابن الرومى» و «البحترى»، ويجد أن أهم جانب يشترك فيه «ابن المعتز» مع «ابن الرومى» هو الطابع الشعبى فى الأسلوب واللغة، ويظهر هذا الطابع الشعبى عند الشاعرين أكثر ما يظهر فى الغزليات والخمريات، ويثبت أستاذنا الكبير لـ «ابن الرومى» تفوقًا واضحا على قرينه، فهو يرى أن أحدًا لم يستطع أن يتفوق على «ابن الرومى» فى تصويره لأثر الخمر فى نفوس المجان، وما تحدث فيهم من السرور وانفساح الأمل حتى ليتخيلون إمكان وقوع المستحيل وحدوثه، كما صور ذلك فى قوله[1]:

ومـلامـة كحشاشـة النـفس ... لـطفـت عـن الإدراك والحس
لنسيجهـا فى قلب شـاربهـا ... روح الـرجـاء وراحـة الـنفس
وتمـد فى أمـل ابـن نشـوتهـا ... حـتى يـؤمـل مـرجـع الأمس

ويخلص أستاذنا من الموازنة بين الشاعرين، إلى أن «ابن الرومى» لم يكن أبرع تصويرًا من قرينه لأثر الخمر فحسب، بل لقد كان أيضًا أكثر منه شعبية، ذلك أن «ابن المعتز» كان أميرًا من أبناء القصور، بينما كان «ابن الرومى» من أبناء الشعب، فتأصلت الشعبية فى نفسه، مما جعله يقترب اقترابًا كثيرًا فى شعره، خمره وغزله وغيرهما، من أغراض شعره من اللغة البغدادية اليومية، حتى ليستحيل كثير من أشعاره إلى ما يشبه صحيفة شعبية، بما صور فيها من ألوان السكان ببغداد على اختلاف مشاربهم ومنازعهم إذ نرى رؤية واضحة للحكام والقضاة والعلماء من كل صنف، والكتاب والبزازين والعطارين والخبازين والحمالين والشوائين والشحاذين، كل أولئك وأضرابهم يرسمون فى أشعاره، وترسم معهم ملابسهم، حتى ملابس البؤساء المرفعة والبالية[2].. وهكذا فإن نتيجة الموازنة النهائية تجيء لصالح «ابن الرومى»، سواء من حيث قوة تأثير خمرياته، أو من حيث شعبيته التى انعكست على شعره شكلًا ومضمونًا.

---

(١) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٢٢، وانظر: ديوان ابن الرومى، تحقيق د. حسين نصار، جـ(٣)، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦م ١١٧٤/ ٩٥٣، ورواية عجز البيت الأول فى الديوان: (لطفت عن الإدراك باللمس).

(٢) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص ١٢٣.

بين «ابن الرومى» و «الحمدونى»:

«الحمدونى» هو إسماعيل بن إبراهيم، ولقب «الحمدونى» نسبة إلى جده «حمدويه» صاحب الزنادقة لعهد «الرشيد»[1]، وقد اشتهر بأشعاره الساخرة المضحكة فى شاه هزيلة، أهداها له أحد رجال العصر وهو «سعيد بن أحمد بن خو سنداذ»، وفى طيلسان أخضر بال أهداه له آخر هو «أحمد بن حرب المهلبى» وقد نظم فى الشاه والطيلسان مقطوعات عديدة، حتى إن مقطوعاته الساخرة فى الطيلسان وحده بلغت خمسين مقطوعة، وقد ذاعت فى بغداد على ألسنة الصبية والشباب والأدباء، وتخاطفتها الأندية والمحافل، كما يصور لنا الدكتور شوقى ضيف[2]، ومن الأشعار التى أوردها الدكتور للشاعر فى وصف الشاه[3]:

لسعيد شويهة ... سلّها الضر والعجف
قد تغنت وأبصرت ... رجلًا حاملًا علف:
بأبى من بكفه ... برء ما بى من الدنف
فأتاها مطمعًا ... وأتته لتعتلف
فتولى فأقبلت ... تتغنى من الأسف:
ليته لم يكن وقف ... عذب القلب وانصرف!

ومما أورده الدكتور للشاعر فى الطيلسان[4]:

وهبت لنا «ابن حرب» طيلسانًا ... يزيد المرء ذا الضعة اتضاعًا
ولست أشك أن قد كان قدما ... لنوح فى سفينته شراعًا
وقد غنيت إذ أبصرت منى ... جوانبه على بدنى تداعى:
«قضى قبل التفرق يا ضباعًا ... ولا يك موقف منك الوداعًا»

ونحن نورد هذين النموذجين الساخرين لهذا الشاعر الساخر، لأن السخرية والإضحاك أمران مشتركان بينه وبين «ابن الرومى»، وقد لاحظ أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ذلك الشبه بين الشاعرين ووقف عنده، بل لقد وازن بين الشاعرين فى هجائهما خاصة، فانتهى إلى أن «الحمدونى» لم يكن يقل عن «ابن الرومى» سخرية وإضحاكًا، لأنه كان إذا سلط أهاجيه على

---

(١) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص١٢٣.
(٢) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص١٠٤.
(٣) المصدر السابق، ص١٠٥.
(٤) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مرجع سابق، ص٤٣٧، والبيت الأخير مطلع قصيدة مشهورة للشاعر الأموى «القطامى» وهو تضمين يلجأ إليه «الحمدونى» كثيرًا.

obeikandi.com

أحد لم يبق فيه باقية، إذ كان ما يزال يقذف أبياتًا سامة تؤذى من تسقط عليه إيذاء شديدًا، ويا ويل من كان يجعل مكافأته له فى المديح قليلة أو يهديه هدية لا تروقه، فإنه كان يسل عليه لسانه بأبيات ساخرة مضحكة[1]. وكان الناس فى بغداد ما يزالون ينتظرون من «الحمدونى» مقطوعات فى شاة «سعيد بن أحمد» وطيلسان «ابن حرب»، ضاحكين مهللين، وبالمثل كانوا ينتظرون أهاجى «ابن الرومى» الكاريكاتورية، وكأنما كانت أهاجى الشاعرين تقوم منهم مقام المسارح الهزلية فى عصرنا وما تقدمه من شخوص فكهة[2].

يتضح من الموازنة أن «الحمدونى» و «ابن الرومى» يقعان فى رأى أستاذنا فى مستوى فنى واحد، من حيث إجادتهما لفن السخرية والإضحاك الذى عمرت به أهاجيهما، ولكن ما يلفت النظر هنا، أن أستاذنا لم يشر إلى محاكاة «ابن الرومى» مرات كثيرة لفن «الحمدونى» فى الشاة والطيلسان، وربما يكون ذلك راجعًا إلى أن أستاذنا عند كتابته تلك السطور، لم يكن قد اطلع بعدُ على ديوان «ابن الرومى» فى صورته الكاملة التى قام بإخراجها أستاذنا الدكتور «حسين نصار» فى ستة أجزاء، ولو أنه كان قد اطلع على الديوان الكامل، لما فاته أن يرصد تلك المحاكاة التى تجعل من «ابن الرومى» تلميذًا لفن «الحمدونى» فى هذا الاتجاه الساخر، حتى لو كان التلميذ قد ضارع الأستاذ، أو تفوق عليه فى بعض المرات، وقد يكون من المفيد هنا أن نورد أنموذجين من شعر «ابن الرومى» الذى حاكى فيه شعر «الحمدونى» فى الشاة والطيلسان، فمن قوله فى الطيلسان[3]:

ولى طيلسان ناحل غير أنه ... ثبوت لهبات الرياح الزعازع
وما ذاك إلا أنه متهتك ... يخلى سبيل الريح غير منازع
أراه كضوء الشمس بالعين رؤية ... ويمنعنى من لمسه بالأصابع
شكى ثقل اسم الطيلسان لضعفه ... فسميته ساجا فهل ذاك نافعى

أما قول «ابن الرومى» فى الطيلسان فهذا أنموذج له:[4]

يا «ابن حرب» كسوتنى طيلسانًا ... يتجنى على الرياح الذنوبا
طيلسان إذا تنفست فيه ... صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
وتهب الرياح فى أرض غيرى ... فتهب الغزور فيه هبوبا
تتغنى إحدى نواحيه صوتا ... فتشق الأخرى عليه الجيوبا

---

(١) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مرجع سابق، ص١٠٤.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٦.
(٣) ديوانه، تحقيق د. حسين نصار، جـ(٤)، ١٤٩٥/ ١١٥٢.
(٤) ديوانه، جـ(١)، ٢٣٠/ ١٦٧.

فـإذا مـا عــذلته، قـال: مهـلا لن يكـون الكـريم إلا طــروبـا
طـال رفـوى لــه فـأودى بكسبى يـا«ابن حـرب» تـركتنى محـروبـا

ولعل هذين الأنموذجين وغيرهما من النماذج المثيلة فى ديوان «ابن الرومى»، يوضحان كيف أن الشاعر قد اندفع فى تقليد فن «الحمدونى»، ويلقيان بضوء آخر على العلاقة بين الشاعرين وفنها الساخر.

بين «ابن الرومى» و «أبى تمام»

مع أن أستاذناه الدكتور شوقى ضيف يُدرِج «أبا تمام» بين أعلام شعراء العصر العباسى الأول، إلا أن ذلك لم يحل دونه ودون الاهتمام بأوجه الشبه والاختلاف بين علم العصر العباسى الأول، وعلم العصر العباسى الثانى.

وبينما يدرج أستاذنا «أبا تمام» بين أعلام مدرسة التصنيع، فإنه يستبعد «ابن الرومى» من هذه المدرسة رغم أوجه الشبه الظاهرية بينه، وبين «أبى تمام» ويسجل كيف أن فكـر «ابن الرومى» الدقيق، وما انطبع فى عقله من طوابع الثقافة والفلسفة، كان حريًّا به أن يصبح من أصحاب مذهب التصنيع، ومن ينظر إلى هذا الجانب عنده، يخيل إليه كأنه من طراز «أبى تمام»، وخاصة حين يقرأ له بعض أبيات مفردة أو قطعا قصيرة مما تناقلته عنه كتب الأدب، ولكن من يقرأ قصائده يعرف أنـه ليس من أصحاب هـذا المذهب: مـذهب التصنيع، إذ لم يكن يعنى بالزخرف، لا فى شعره، ولا فى حياته إلا قليلاً، وكأنه كان يأتى بما يأتى به من هذا الزخرف أحيانًا مجاراة للعصر، وحقا شغف شغفًا شديدًا بالتصوير، ولكن هذا الشغف لا يخرجه من دائرة الصانعين، كما لا تخرجه من دائرتهم ثقافته الفلسفية، وما يمتاز به من فكر عميق»[1].

هناك إذن دائرة المصنعين، وهناك دائرة الصانعين، وأستاذنا الدكتور شوقى ضيف يضـع «أبا تمام» فى الدائرة الأولى، بينما يضع «ابن الرومى» فى الدائرة الثانية، فالصنعة عنده كانت أقل تعقيدًا وتعمدًا عما كانت لدى سلفه، على أن الدائرتين ليستا مغلقتين تمامًا، فكثيرًا ما كان يحدث تأثر واضح من الصانعين بالمتمتعين، يقول أستاذنا مفصلاً ذلك[2]: «ومهما يكن فإن «ابن الرومى» لم يستطع أن ينتقل لصناعته من دائرة الصانعين إلى دائرة المصنعين، لأنه كان يفهم الشعر بصورة أقرب من الصورة التى علقت بأذهان أصحاب التصنيع، فلم يكن يعتقد مثلهم بأن الشعر جهود عنيفة يبذلها الشعراء، فى استحداث تلك الزخارف الدقيقة التى شغف بها «أبو تمام» وأمثاله، ليس الشعر زخرفًا وتصنيعًا، بل هو تعبير، ومن الممكن أن يضاف إلى هذا

(١) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مرجع سابق، ص٢٠٤.
(٢) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مرجع سابق ص٢١٦ - ٢١٧.

التعبير شيء من الحلي والوشي، المرصع، ولكن في خفة، وبدون أن يتعمد ذلك الشاعر تعمدًا، يخرج به عن غرضه الأساسي من التعبير عن خواطره إلى التعبير عن ألوان التصنيع الأنيقة، ومن هنا كانت جماعة الصانعين تستعير أدوات التصنيع في بعض الأحيان، ولكن دون أن تستمر في ذلك، وذون أن تتخذها مذهبًا في صناعتها، قد تطبقها ولكنها لا تستمر في التطبيق، وربما أخفقت في هذا التطبيق، كما أخفق «البحتري» في كثير من طباقه، وكما أخفق «ابن الرومي» أحيانًا في استخدامه للفلسفة كزخرف جميل، فقد رأيناه يقف في هذا الجانب عند استعارة الصياغة المنطقية، بينما رأينا «أبا تمام» يستخدم الفلسفة فيعقد بها في طباقه، ويستخدم هذا اللون الجديد من نوافر الأضداد».

وهكذا فإن الموازنة تجيء هذه المرة لصالح «أبي تمام»، فلم يكن «ابن الرومي» ليرقى عند أستاذنا إلى توظيف الفلسفة بنجاح، كما فعل «أبو تمام»لم يكن ليقف في تصنيعه عند مستواه، وإن كان أحيانا يلزم نفسه ما لا يلزم خاصة في القافية، حين عمد إلى محاكاة الشاعر الأموي «كثير عزة» الذي نظم قصيدة تائية التزم فيها قبل التاء حرف اللام، ففعل «ابن الرومي» ذلك في طائفة من قصائده، ثم جاء «بو العلاء الذي عمم هذه الطريقة في ديوان ضخم هو اللزوميات[1]، ولا شك أن في ذلك ضرب من ضروب التصنيع الذي تنتشر ضروب أخرى منه في ديوان «ابن الرومي».

حياة «ابن الرومي» وشخصيته:

إن القارىء لكتب أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، يستطيع أن يعثر على ترجمة وافية لحياة «ابن الرومي»، كما يستطيع أن يقف على تحليل متماسك لشخصيته ومزاجه وعلاقته برجال عصره.

إن الخطوط الرئيسية العامة لحياة «ابن الرومي» والحوادث المهمة التي أثرت في شخصيته مبسوطة عند أستاذنا خاصة في كتابيه (العصر العباسي الثاني)[2] و ((الفن ومذاهبه في الشعر العربي)[3]، حيث نتعرف على نشأته الأولى وأصوله الرومية من جهة أبيه، والفارسية من جهة أمه.. ونراه يفخر بذلك - شعرا - فيقول:

كيف أغضى على الدنية والفر ... س خئولي والروم هم أعمامي؟!

ثم نصطحب الشاعر منذ مولده سنة (٢٢١) للهجرة، حيث لم تكد تتقدم به الأيام حتى توفي

---

(١) د. شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، مصدر سابق، ص٤٣.

(٢) د. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مصدر سابق، ص٢٩٦ - ٣١٢.

(٣) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصدر سابق، ص٢٠٠ - ٢٠١.

أبوه، فكفلته أمه وأخخ كبر منه، ونراه يتجه إلى الثقافة المعاصرة له وإلى الشعر ورواي القديم والحديث منه، ولم يلبث أن جرى على لسانه، فتهادته النوادى والمحافل فى بغداد، كما تهاداه الوزراء وكبار رجال الدولة، فمدحهم ونال عطاءهم، وابتسمت له الحياة قليلاً، غير أنها سرعان ما عبست، فماتت أمه ومات أخوه، وتزوج وأنجب أطفالاً، إلا أن القدر أخذ يعصف بهم واحدًا وراء الآخر، وماتت زوجته[1].

ونصحب «ابن الرومى» فى رحلته فى الحياة مع ممدوحيه وأصدقائه من رجال العصر، كما صورت هذه الرحلة ريشة أستاذنا بتركيز ودقة.

فمن ممدوحيه «محمد بن عبد الله بن طاهر» حاكم بغداد، الذى رثاه الشاعر عند مقتله عام (٢٥٢) للهجرة، ومنهم كذلك أخو ذلك الحاكم «عبيد الله بن عبد الله بن طاهر» الذى كان أكثر الطاهريين معرفة وأدبًا، وله كتب مصنفة مختلفة، وأغان مدونة، وهو أقرب ممدوحى «ابن الرومى» إلى نفسه، فقد أغدق عليه جوائز وأموالاً كثيرة، وكان شاعرًا يحسن فهم الشعر وتذوقه، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة، وقد وقف مع «ابن الرومى» ضد «البحترى» فى الخصومة التى جرت بينهما، فكان بذلك ممثلاً للذوق الجديد فى الشعر لعصره، ووجد فيه «ابن الرومى» راعيه المادى الذى يجزل العطاء، وراعيه المعنوى الذى ينوه بأشعاره، ويصفق لطرائفه استحسانًا، ويقف ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال «البحترى»[2]. ومن هؤلاء الممدوحين أيضًا «أحمد بن إسرائيل» وزير المعتز لسنة ٢٥٣ هجرية و «أحمد بن ثوابة» كاتب القائد التركى «بايكباك»، و «إسماعيل بن بلبل» رئيس ديوان الضياع، ووزير المعتمد فيما بعد، ومنهم كذلك «سليمان بن عبد الله بن طاهر» الذى بدأ «ابن الرومى» بهجائه انتصارًا للخليفة المخلوع «المعتز»، ومنهم كذلك «صاعد بن مخلد» وابنه «العلاء بن صاعد»، ومنهم «إبراهيم بن المدبر» ممدوح «البحترى» ورئيس ديوان الرسائل، وغير هؤلاء الأعلام من رجال الدولة وكبار مسئوليها، نجد هناك مديحًا فى ديوان «ابن الرومى» لبعض ذوى البيوتات - كما يعبر أستاذنا - فى بغداد وفيما حولها من المدن والضواحى، وممن نراهم ماثلين فى ديوانه «بنو قياض» و «بنو نوبخت» وهما أسرتان من أصول فارسية، وكذلك «بنو حماد» قضاة بغداد[3].

أما أصدقاؤه الذين يردون فى ديوانه، فهم كثيرون، ويجعلنا أستاذنا نقف على معظمهم، ونطلع على صلة الشاعر بهم، ومن هؤلاء «أبو عثمان الناجم» الشاعر وراويه «ابن الرومى» وتلميذه،

(١) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٠.
(٢) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣٠٢.
(٣) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

ومنهم «ابن المسيب» الكاتب و «أحمد بن عبيد الله» و «أحمد بن بشر المرشدى» الكاتب و «على بن يحيى المنجم» أحد كبار مثقفى العصر، الذى كان يمتلك مكتبة عظيمة - وكان شاعرًا ونديمًا رفيعًا للخلفاء من «المتوكل» إلى «المعتمد»، ولا يعرف بالضبط بدء اتصال «ابن الرومى» به، وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة وله يعاتبه[1]:

لتهنأ رجال لا تزال تجودهم ... سحائب من كلتا يديك مواطر
عنيت بهم كأنك والد ... لهم وهو - دونى - بنوك الأصاغر

ومن هؤلاء أيضا نديه الشاعر «حجظه» الذى كان يتخذه للهزء به وللفكاهة، ويسرد لنا أستاذنا أسماء العديد من خصوم الشاعر الذين هجاهم هجاءً مقذعًا، ومن هؤلاء «مثقال» و «إبراهيم البيهقى» و «أبو حفص الوراق» و «ابن أبى طاهر» و «ابن الخبازة» و «خالد القحطبى»، فقد كان يشب مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس، وكان دائمًا هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله، وتعرض بالهجاء لبعض اللغويين وأصحاب الأدب مثل «المبرد» لأنه كان يقف فى صف «البحترى» ضده، وتبعه تلميذه «الأخفش» فى هذا التعصب، وكذلك «نفطويه» النحوى، ولم يسلم هؤلاء جميعًا من أهاجيه[2].

ويحرص أستاذنا على أن يبين لنا طباع «ابن الرومى»، ويرسم معالم شخصيته التى كان التشاؤم أهم عنصر فيها، وكذلك حدة المزاج[3] التى أثرت كثيرًا فى شعره وعلاقته بممدوحية على الأخص، حيث كان كثيرًا ما ينقلب ضد الممدوحين إذا لم يصلوه على نحو يرضيه، وخير مثال لذلك «آل وهب» الذين تحولت إليهم الوزارة عام ٢٧٨ للهجرة، وقال «ابن الرومى» فى أحد أعلامهم «عبيد الله بن سليمان بن وهب»[4]:

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا ... لم يحمد الأجودان: البحرُ والمطرُ
وإن مضى رأيه أو حد عزمته ... تأخر الماضيان: السيفُ والقدرُ
وإن أضاءت لنا أنوار غرته ... تضاءل النيران: الشمسُ والقمرُ
ينال بالظن ما يعيى العيان به ... والشاهدان عليه: العينُ والأثرُ

لكنه لم يلبث أن هجاه وهجا «آل وهب» جميعًا عندما لم يصيخوا له، ففسد ما بينه وبينهم فسادًا لا يمكن رأبه.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٩، والبيتان فى الديوان، جـ(٣).
(٢) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى - مصدر سابق، ص ٣٠٩.
(٣) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
(٤) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصر سابق، ص ٣١٠، ٣١١، والأبيات فى ديوانه جـ(٣).

فن ابن الرومى:

نجد فى كتابات أستاذنا حفاوة بالغة بشعر «ابن الرومى»، فهو يعرض لأغراضه الشعرية فى كتابه (العصر العباسى الثانى)، فيلمس فى هجائه لونين، أحدهما يميل للسخرية اللاذعة، أما اللون الآخر فيميل للنزعة الكاريكاتورية[1]، كما يفرق بين هجائه الفردى وهجائه الاجتماعى[2]، كما يعرض لمديحه ويضع يديه على ما فيه من تنويع وتجديد، أما الرثاء والعزاء عنده فيربطهما بالتشاؤم وبأخيلة الموت عند الشاعر[3]، ويعرض كذلك لغزله، ويلاحظ خلوه من الغزل بالمذكر، كما يعرض لخمرياته ولوصف مجالس اللهو والسماع وغير ذلك من فنون انفرد بها «ابن الرومى» وتميز بها شعره، مثل وصف الطعوم والفواكه ووصف الطبيعة الذى عده أستاذنا من رواده[4]، وقد تصدى أستاذنا فى هذا المقام لرأى «العقاد» فى كتابه عن «ابن الرومى» حيث فسر «العقاد» تفوق «ابن الرومى» فى شعر الطبيعة بأن ذلك يعود إلى لوراثة، فقد ورث «طابن الرومى» حب الطبيعة من أجداده اليونان، ولكن أستاذنا يفند هذا الزعم ويرده محتجًا بأن اليونان لم يعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملئوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند «ابن الرومى»[5]، وقد أصر أستاذنا فى موضع آخر، على أن الوراثة ليست كل شيء فى شعر «ابن الرومى» إذ ينبغى أن نضيف إليها الثقافة اليونانية الإسلامية التى كان يتثقفها الشعراء فى القرن الثالث، فعند «ابن الرومى» يونانية أصيلة ويونانية مكتسبة لعلها أهم من يونانيته الأصيلة، وهناك أيضا ثقافة إسلامية وعربية مكتسبة[6].

ومن الأغراض الأخرى التى وقف عندها أستاذنا فى شعر «ابن الرومى» الزهد، وقد فسّره بالتشاؤم الذى كان عليه الشاعر[7]، وجعل من «ابن الرومى» متفوقًا فى هذا الفن الشعرى حتى إن أحدًا لم يرسم صورة الزاهد فى عصره كما رسمها هو، وفى هذه الصورة نرى الزاهد ساهرًا طوال الليالى والأسحار، يسبح بذكر الله ويثنى على آلائه ويتلو آيات كتابه، وكلما مرت

---

(١) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣١٥.
(٢) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مصدر سابق، ص ١٠٢.
(٣) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابقاًص ٣١٧، ٣١٨.
(٤) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٨، ص ٢١٠.
(٥) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣٢١، ٣٢٢.
(٦) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
(٧) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣٢٣.

به آية وعيد ذرفت عيناه الدموع ضارعًا إلى ربه أن ينجيه من عذاب النار، وأن يغفر له خطيئاته وسيئاته[٢].

بات يدعو الواحد الصمدَا	فى ظلام الليل منفردا
فى حشاه من مخافته	حرقات تلذع الكبدَا
كلما مر الوعيد به	سح دمع العين فاطردا
قائل: يا منتهى أملى	نجنى مما أخاف غدًا
وخطيئاتى التى سلفت	لست أحصى بعضها عددَا
ويح عينى ساء ما نظرت	ويح قلبى ساء ما اعتقدَا

ولم يقف أستاذنا عند أغراض «ابن الرومى» فحسب، بل مضى يحلل فنه الشعرى تحليلاً نقديًا بارعًا سواء من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى، أو من حيث الشكل والمضمون، فلاحظ فى معانيه ظاهرة الاستقصاء[٢] والاعتماد على المحاجة العقلية المنطقية[٣]، واللجوء إلى الإطالة حتى لقد تربو بعض قصائده على ثلاثمائة بيت[٤].

وقد وقف مرة أخرى ضد «العقاد» فى تفسيره للإطالة عند «ابن الرومى»، بأن مرجع ذلك يعود إلى أن الشاعر كان يطيل القصائد حفاوةً بالممدوحين، أو إكبارًا لشأنهم، وإظهارًا لعنايته بإرضائهم، وقد رد أستاذنا على هذا الرأى بأن الإطالة عند «ابن الرومى» تعو إلى استخدامه للصياغة المنطقية فى قصائده، فشغف بهذا الطول الذى هو من أخص صفات من يريدون التعبير المنطقى الواضح، وأن ثقافة «ابن الرومى» قد أحدثت فى شعره هذا النوع الغريب من الطول فى نماذجه، فإن الشعر عنده لم يعد تعبيرًا لعاطفة فقط، بل أصبح تعبير العقل قبل أن يكون تعبير العاطفة، وبذلك عمه غير قليل من التحليل والتفصيل، والبحث والتحقيق[٥].

ويشير أستاذنا كذلك إلى ثقافة «ابن الرومى» وأثرها على شعره، كما يلمس أثر ميله للتشيع من جهة، وللاعتزال من جهة أخرى على كثير من قصائده، ولا ينسى أستاذنا أن يشير أيضًا فى ثنايا كتبه المختلفة، إلى أهم الخصائص الفنية فى شعر «ابن الرومى» مثل الميل للتجسيم

---

(١) د. شوقى ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، مصدر سابق، ص ١٢٥، والأبيات فى الديوان جـ(١).
(٢) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣١٥.
(٣) د. شوقى ضيف، فى النقد الأدبى، مصدر سابق، ص ١٥٦.
(٤) بلغت إحدى لامياته (٣٣٧) بيتًا، انظر ديوانه، تحقيق د. حسين نصار، جـ(٥)
(٥) د. شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، مصدر سابق، ص ٢٠٦.

والتشخيص[١] وشعبيته فى اختيار الموضوعات وفى التعبير عنها، واعتماده على فن التصوير من خلال قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويرًا بارعًا[٢]، كما أشار أيضًا إلى تجديده فى القوافى ولزوم ما لا يلزم فيها، وكذلك إلى تجديده فى حذف المقدمة أحيانًا أو المبالغة فى إطالتها أحيانًا أخرى[٣] مع التنويع فيها[٤]، إلى غير ذلك من خصائص فنية مختلفة امتاز بها شعر «ابن الرومى».

والحق أن أستاذنا يقدم فى كتاباته لوحة متكاملة لحياة «ابن الرومى» ولأغراض شعره، ولخصائص هذا الشعر الفنية مع مقارنة فن الشاعر بفنون معاصريه من الشعراء الأعلام، وهو يستند فى هذا التحليل النقدى التطبيقى على أساس راسخ متين من الثقافة النقدية النظرية التى تضرب بجذورها فى تراثنا العربى من جهة، وفى التراث النظرى الغربى من جهة أخرى.

ولعل الجمع بين تراثنا وتراث الغرب مع عدم الخلط بينهما، هو الذى جعل من أستاذنا ناقدًا رائدًا يميل إلى الاتزان والوسطية فى ميوله وأحكامه، فلا يتحفَّظ مع المحافظين، ولا يتطرف مع المتطرفين، بل يقف موقفًا وسطًا قريبًا من روح تراثنا، ويعبر عن ذلك الموقف صراحة فى ثنايا كتبه وأبحاثه[٥].

ولئن كان هناك بعض النقص فى الصورة التى قدمها أستاذنا الكبير شوقى ضيف لشاعر فذ مثل «ابن الرومى»، فإن هذا النقص لا يعود إلى تقصير من أستاذنا، قدر ما يعود إلى النسخة الناقصة التى اطلع عليها أستاذنا من ديوان الشاعر، وربما نأخذ على أستاذنا إغفاله لشعر «ابن الرومى» الخارج أخلاقيًا ودينيًا مع أنه ينادى فى كتبه بفصل الشعر عن الأخلاق والدين[٦]. ولكن ينبغى أن نجد بعض العذر له فى بيئة محافظة متزمتة كالبيئة العربية المعاصرة.

تحية لأستاذنا العظيم ولجهوده الرائدة فى تحليل التراث الشعرى، وتقديمه فى أبهى صورة للقارئين والباحثين والنقاد!..

أحمد محمد عبيدان
وزارة التربية والتعليم
الدوحة - قطر

---

(١) المصدر السابق، ص ٢١٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠٧.
(٣) د. شوقى ضيف، العصر العباسى الثانى، مصدر سابق، ص ٣١٤.
(٤) المصدر السابق، ص٣١٣.
(٥) انظر مثلًا: د. شوقى ضيف، فى النقد الأدبى، المصدر السابق، ص ٨١، وص١٧٥.
(٦) د. شوقى ضيف، فى النقد الأدبى، مصدر سابق، ص ٨٣.